٢ ـ الحسن البصرى

رئيس المدرسة الفلسفية الأولى فى الإسلام

الأستاذ حسين على الداقوقى

تصوفه :

عرك الحسن البصرى أزمات فكرية متعددة ، فيقول عنه الأستاذ حلمى ضياء « أنه وافق القدريين ، فغدا مثلهم قدريا ورأى حرية الإرادة والاختيار ، ثم عدل عن هؤلاء بعد نقاش وجدل طويلين ، وشرع يتبع عبد الله بن عمر ويقفو أثره ممارساً الجبرية والقدرية معاً ، فتكونت له شخصية متميزة خاصة به فأوجد مذهباً وسطاً بين المذهبين ذلك هو مذهب الحرية الصوفية » إلا أن هذا الرأى ينبغى ألا يجرنا إلى القول بأنه لما عدل عن زمرة القدريين معناه ترك مذهب الاختيار ، لأنه فى الواقع ظل ينزع إلى المذهب نفسه ويفصح عنه بمناسبات عديدة ، وذلك مما دعا المعتزلة أن يعتبروه منهم (١)

لم يبق من آثار الحسن البصرى غير نصوص متفرقة فى طيات الكتب ، ورسائل تحملها كتب الآخرين ، مع العلم أن مواعظه العامة كانت قد جمعها طلابه أيام حياته ، ونشرت بعد وفاته من قبل حميد الطويل ، وهو الأثر الذى تطرق إلى ذكره الجاحظ فى عهده . كما نشرت من آثاره تعليقاته حول القرآن ، ورتبت من قبل عمرو بن عبيد المعتزلى بشكل تفسير وأن محاضراته المتعلقة بالأسس الأخلاقية فى القرآن جمعت باسم (مسائل) جمعها صاحبه الأشمت الحرانى . أما محاضراته غير المدونة فقد رواها تلاميذه على شكل (روايات) تروى عنه

كان الحسن ورعاً تقياً يعده الصوفية من أقطابهم ويتمثلون بحكمه وجمله ، وإذا حللنا التصوف الإسلامى إلى عناصره التى تكون منها وجدنا الحسن خير مثال لعنصر الزهد والتقوى بصفتهما الإسلامية ، وكذلك إن جاز لنا أن نقول إن الصوفية الإسلامية اتخذت لها مدارس مختلفة فى البلاد الإسلامية المختلفة كالبصرة وبغداد وخراسان وتركستان ، لأصبح الحسن البصرى دعامة مدرسة البصرة وداعية الزهد والتقوى فيها

يقول ابن تيمية بصدد البحث عن نسبة الصوفية :

« وقيل وهو المعروف ، إنه نسبة إلى لبس الصوف . فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد ، وعبد الواحد من أصحاب الحسن . وكان فى البصرة من المبالغة فى الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن فى سائر الأمصار ، ولهذا كان يقال فقه كوفى وعبادة بصرية » « وإذا عرف أن منشأ التصوف كان من البصرة وأنه كان فيها من يسلك من طريق العبادة والزهد ما له فيه اجتهاد ، كما كان فى الكوفة من يسلك من طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد ، فهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة وهى لباس الصوف فقيل فى أحدهم صوفى ، وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به ولكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال » (٢)

والمستشرق الشهور دوزى رأى آخر حول نشأة الصوفية وعلاقة الحسن البصرى بها . فيقول « كانت فى البصرة امرأة زاهدة ورعة تقية تسمى (رابعة) ، وهى التى اعتاد حجاج العصور الوسطى زيارة قبرها الكائن على رابية تشارف القدس ، فكانت على رأى الصوفية الأوائل ، تعتريها حالات الوجد والشعور الإشراقى ، وكانت أعلى مقاماً من الحسن البصرى . ولو جاز لنا الشك فى اعتبار الحسن البصرى من أهل السنة ، لا ينكر أنه كان يحوز نقطة بدء غير التى عند التصوفة . ففى الوقت الذى يعتبر الحسن البصرى الشعور بالخوف جوهر التقوى ، يرى الصوفية عكس ذلك ، فيبدأون من نقطة المحبة ويخاصمون القدين يتخذون الخوف مبدأ لهم . وقد حدث أن سئل أحد الصوفية « من الذى يجب أن يعتبر لئيما ؟ » فأجاب « الشخص الذى يتعبد خوفاً من العقاب ورجاء الثواب » فسئل « لماذا

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة الحسن البصرى

(٢) ابن تيمية : الصوفية والفقراء ص ٣ ـ ١٧ الطبعة الثانية ١٣٤٨ مطبعة المنار

تعبد أنت ؟ » فقال « المحبة لحسن » (٢)

بيد أن الظاهر — والله الحقيقة — يدل على أن التصوف الإسلامي أيام الحسن كان متمثلا في الزهد والتقوى فقط ، وهما العنصران الأساسيان في التصوف ، أو بالأحرى هما الأساس له ، إذ لم تكن العناصر الأخرى كالأفلاطونية الحديثة وغيرها قد دخلت فيه بعد . فالتصوف في هذا العهد كان في بداية نشأته وأوائل تأسيسه بشكل بسيط غير مشوب بالشوائب الأخرى التي اختلطت به فيما بعد . أما فيما يتعلق برابعة العدوية فلا يزال الشك يحوم حول صحة نسبة جميع الأقوال والأبيات الشعرية المنسوبة إليها (٤) فإن هذه الأقوال بحد ذاتها من حيث مبناها ومعناها تثير ريبة كل باحث ملم بثقافة ذلك العصر .

إن هذا الرأي هو الآخر ليتضح للقارئ الكريم بكل جلاء في استعراضنا وتحليلنا مبادئ الحسن البصري الصوفية ، في الفقرات التالية :

إن نقطة البداية عند الحسن في هذا الباب هي استصغار هذه الدنيا الفانية الزائلة التي استصغرها الله ورسوله . ونجد في رسالته التي بعثها إلى عمر بن عبدالعزيز يقول : « أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن ، وبالآخرة لم تزل (٥) » وكذلك يرى أن الله كلف المتقين (أهل الانقطاع) أن ينتهجوا ثلاثة مسالك : الأمل ، والأجل ، والسحر . ومعنى ذلك أن يكونوا في حالة الأمل ، وأن يدور في خلدهم الأجل في كل آن ، وأن يقضوا السحر أو الليل بالفكر ، تلك الخصال الحميدة التي تميزهم عن سواهم من الناس الذين يضيعون آمالهم ، ويستقدمون بالأجل عند مواقاة المنية لهم ، والليالي التي يقتضي قضاؤها بالتفكير فهم يقضونها من غير تفكير . إن قاعدة الحياة عند الحسن البصري ليست بمجرد الحيطة والتجنب ، ولا بمجرد الورع والتقوى والابتعاد عن المنكرات الخلقية وما شاكلها ، إنما هي قبل كل شيء عبارة عن الزهد والخشوع لله ، والتفرغ التام عن كل العالم ، وعن كل ما هو فان ، وهذا معناه أن يكون الإنسان تجاه نفسه في حالة حزن دائم . ويروى أنه لم يضحك أربعين سنة ، وكان في حزنه كما قال يونس بن عبيد الله الحسن : كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه ، وإذا جلس فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه . كان إذا ذكرت النار عنده فكأنها لم تخلق إلا له (٦)

ومن أقواله التي يستشف منها اتجاهه في تصوفه : قال : إنكم لا تنالون ما تحبون إلا بترك ما تشتهون . ولا تدركون ما تؤملون إلا بالصبر على ما تكرهون (٧) . قال عيسى بن عمر : سمعنا الحسن يقول : اقدعوا هذه النفوس فإنها طلعة ، واعصوها فإنكم إن أطعتموها تنزع بكم إلى شر غاية ، وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور (٨)

وكان يقول : ذهبت المعارف وبقيت المناكر ومن ثق من المسلمين فهو مغموم ويقول : ما من وسواس نبذ فهو من إبليس ، وما كان فيه إلحاح فهو من النفس . فيستعان عليه بالصوم والصلاة والرياضة ، وإذا أراد الله بعبد خيرا في الدنيا لم يشغله بعبد ولا ولد ... ومن لبس الصوف تواضعا لله عز وجل زاده نورا في بصره وقلبه (٩)

إن أساس الدين عند الحسن هو التقوى والحزن ، وبإيهما في ذلك الخوف . وقد لعبت فكرة الخوف دوراً هاما في تصوف الحسن ، فهي التي تيسر الفناء إزاء المطلق ، والذوبان فيه ، ولا شيء يطهر الإيمان كما يطهره الخوف . وقد ذكر في سياق رسالته إلى عمر بن عبد العزيز : أدمن الجوع ، وشعاري الخوف . ولباسي الصوف ، ودابتي رجلي ، وسراجي بالليل القمر ، وصلايتي في الشتاء الشمس ، وفاكهتي وريحاني ما أنبت الأرض للسباع والأنعام (١٠)

وكان يردد ما مفهومه : إن الخوف والرجاء دعامتان يستند إليهما المؤمن على أن يكون الخوف عنده أقوى من الرجاء ، لأن

(٣) راجع مبحث نشأة التصوف والاعتزال في كتابه من تاريخ الإسلام

(٤) نيكلسون : في التصوف الإسلامي ص ٧٠ من الترجمة العربية

(٥) البيان والتبيين ج ١ ص ٤٥ طبعة السندوبي

(٦) قوت القلوب ج ٤ ص ١٨٣ ، وكتاب التصوف وفريد الدين العطار لنزاد ص ٢١

(٧) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٨

(٨) نفس المرجع ص ٢٤٠

(٩) الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ٢٥ مطبعة محمد الحلبي بمصر

(١٠) حلية الأولياء لأبي نعيم ج ٢ ص ١٣٢

الرجاء عند ما يغلب الخوف يفضى إلى فساد القلب ، وبواسطة الخوف ذاته نستطيع أن نتبين عجز المتناهى ، والفناء فى داخل اللامتناهى . ذلك أن الشعور بالعجز يكشف بتضاد جدلى (ديالكتيكى) عن ماهية القدرة ، وبهذه الطريقة نفسها يمكن الإسناد إلى كلام الله ، وهذا هو ما يدعى بـ (الاستماع) وبعد ما يمر الإنسان بهذه الحالات الروحية يفهم القرآن . ومن هذه الناحية يكون الحسن البصرى واضع أساس علم النفس الصوفى أى (علم القلوب) . ومن ثم يدخل فى تحليل الحالات الداخلية للانسان ، وإن التعاريف التى أوردها بصدد محاسبة الطوية والضمير Examen de conscience ، كأنها قد أعدت مفاهيم الحارث المحاسبى فى هذا المجال . وقد دعا الإنسان إلى أن يوجه نظراته إلى داخل نفسه ، ويتأمل ، لأن التأمل هو مرآة تتجلى فيها للمرء ما فى الإنسان من محاسن ومساوئ ، وهو يسيطر على نفسه بالتأمل ، وأن سمة روحه هى سمة تأمله — وهى عبارات يتذكرها الإنسان عند ما يلاحظ علم النفس عند Emerson

إن آثار هذه الواعظ لم تبق مقصورة على النطاق الأخلاق والأدبى فحسب ، إنما عملت على توسيع المفهوم الإسلامى والفلسفة فى وقت واحد . فأصبحت شخصية الإنسان لا تفهم كمجرد شئ قائم على الأعضاء والملكات الروحية فقط — أى أن شخصية الإنسان تبعا لهذا المفهوم ليست من أثر التركيب وحده ، بل إنها تظهر قلبا كليا ناميا متطورا ، وهذه هى بداية المذهب الروحى الإسلامى Spiritualism الذى توسع فيما بعد على أيدى المتصوفة الروحيين

تطرق الحسن البصرى إلى مسألة خلق الأفعال البشرية ، ورأى أن الله فوض للانسان أفعاله الحرة ، وهذا يعنى أن الله وهب الإنسان الفيض والاستعداد لاستطاعته القيام بهذه الأفعال ، وهذا هو منشأ مذهب الاتفاقية Occasionalisme بينما يرى المعتزلة مقابل ذلك نظرية التولد ، أى أنهم يأخذون بالنظرية القائلة : إن الله يوجد الأفعال فى الإنسان ، ولكنه يوجد كل فعل على حده . لذلك كانت نظرية الحسن مغايرة لمفهوم الإرادة الجزئية عند المعتزلة ، وهى فى الوقت نفسه مغايرة للمذهب الجبرى Fatalism عند الجبريين ، فنظرية الحسن والحالة هذه تقول بالحرية على أن تكون مرتبطة بيقين إلهى

وختاما لتصوف الحسن البصرى ينبغى ألا يغرب عن البال أن أول اتصال بين الصوفية ونظام الفتوة تم فى دائرة الحسن البصرى ، حيث كان الحسن نفسه يعرف بـ (الفتى) أحيانا وبـ (سيد الفتيان) أحيانا أخرى (١١)

ثقافته العامة وصلاته الاجتماعية

كان الحسن أستاذ أهل البصرة ، وبدرهم الطالع ، يقول عنه ابن سعد : كان الحسن « جامعا عالما عاليا رفيعا فقيها ثقة مأمونا عابدا ناسكا كبير العلم ، فصيحا جميلا وسيما (١٢) » قال ثابت بن قرة الصابئ « ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس : عمر بن الخطاب فى سياسته ، والحسن البصرى فى علمه وورعه ، والجاحظ فى فصاحته وبيانه (١٣) ويروى عن الربيع ابن أنس بأنه اختلف إلى الحسن عشر سنين أو ما شاء الله ما من يوم إلا يسمع منه ما لم يسمعه قبله (١٤)

لم يكن الحسن مختصا بعلم من العلوم أو بفن من الفنون ؛ إنما كان متفضلا بثقافة عصره ، تطرق إلى المعارف المختلفة التى آذنت بالازدهار فى محيط الإسلام . فقد وجه تعاليمه إلى عقول سامعيه لا إلى خيالهم ، وبذلك أسس فى الإسلام طريقة للتفكير تتعلق مباشرة بأوليات الفلسفة (١٥) بحيث يمكننا أن نقول إن أول مدرسة فلسفية نشأت فى الإسلام كانت فى البصرة برئاسة الحسن البصرى . كذلك كانت مواعظه رائعة تعمل فى تكوين العقيدة وعلم أصول الدين واللاهوت (١٦) ويذكر له ابن النديم مصنفا فى التفسير ، وله أيضا كتابات فى الشروح القرآنية ، وقراءاته القرآنية مشهورة (١٧) وله مكانته فى تطور النحو وعلم

(١١) أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة
(١٢) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٠ طبع ليدن
(١٣) معجم الأدباء لياقوت ج ١٦ ص ٩٥ — ٩٦
(١٤) تهذيب الأسماء للنووى ج ١ ص ١٦٢ طبعة مصر
(١٥) جولدشون : نفس المرجع ص ٩
(١٦) : نفس المرجع ونفس الصفحة
(١٧) الأنبارى : الانصاف فى مسائل الخلاف ج ١ ، ج ٢ أشار إليها عدة مرات ، اطلب الفهرست

الكلام وخاصة في الفقه . فقد دعا إلى التفقه بالدين (١٨) ، وفي له مصنف ، لعله كان في الفقه باسم (الإخلاص) ورد ذكره في أخبار الحلاج المفكر الصوفي المشهور (١٩) ولا نكون مغالين إذا قلنا إن له فضلا عظيما في تقدم الفقه الإسلامي وتوسيع نطاقه، فقد سئل أنس بن مالك عن مسألة فقال : سلوا مولانا الحسن (٢٠) وذكر عنه قتادة وقال : ما جالست فقيها إلا رأيت فضل الحسن عليه ، وقال أيضا : ما رأت عيناي أفقه من الحسن (٢١) وقال بكر بن عبد الله : الحسن أفقه من رأينا ومناقبه كثيرة مشهورة (٢٢) ودرج أبو إسحق الشيرازي في طبقات الفقهاء عددا يسيرا من تراجم أصحاب الحسن وطلابه الفقهاء . فلا عجب والحالة هذه إذا ما وصفه المستشرق المبروف برارن في بحثه عن نشأة الاعتزال بالفقيه الشهور . أما في مجال البيان فكان يشبه رؤبة بن العجاج (٢٣) فقد كان الحسن حقا أحد فصحاء الإسلام وبلغائه ، وكان طلقا لبقا ، يحذق الحديث وفن الخطاب ، حسن البديهة والارتجال. وقيل للحجاج من أخطب الناس قال: صاحب العمامة السوداء يعني أخصاص البصرة يعني الحسن (٢٤) وقال الغزالي : كان الحسن البصري أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء وأقربهم هديا من الصحابة (٢٥) وكان قصاصا يعد من أفاضل القصاص وأصدقهم ، يستخرج العظة مما يقع حوله من حوادث (٢٦) يجلس في آخر المسجد وحوله حلقته ، حيث كان نظام التدريس العالي آنذاك يجري على شكل حلقات المحاضرة والمناظرة

لم يسلم الحسن البصري — كما مر بنا — من انتقادات وجهت إليه في أيام حياته ، فقد تهجم عليه الشيعة الإماميون والخوارج لأنه وقف على الحياد من موقعة صفين، إلا أنه مع ذلك ظل يعتبر بين الناس رئيس الصوفية الكلاسيكية ، ومربيا لعدد من المنزلة الميالين إلى التصوف ، كما تبعه بعض المحدثين من أهل السنة، وانتهت كل الحلات عليه بموته ، وأثنى عليه الشيعة في بعض الأحيان وذكروا مآثره (٢٧) ومن ثم لا نستغرب من رواية ابن خلكان بأن أهل البصرة كلهم تبعوا جنازته بحيث لم يبق في المسجد من يصلي صلاة العصر . وكانت وفاته ١١٠ هـ (٢٨) ودفن في البصرة القديمة ، وقبره الآن بجانب قبر ابن سيرين مزار لمختلف الفرق الإسلامية

(١٨) الطوسي : كتاب اللمع في التصوف ص ١٤٢ في سلسلة ليدن ١٩١٤

(١٩) راجع:
(أ) الخوانساري : روضات الجنات ص ٣٠٩ طبعة إيران في مادة الحسن البصري . وحسين الحلاج
(ب) أحمد بن الخياط الوصلي : ترجمة الأولياء في الوصل الحدباء . مخطوط في مكتبة مديرية الآثار القديمة العراقية . وترجم فيه أولياء الوصل وأهداه إلى الوزير نجيب باشا

(٢٠) الشيرازي : طبقات الفقهاء ص ٦٨ طبعة بغداد سنة ١٣٥٦ هـ

(٢١) ابن كثير في البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ مطبعة السعادة

(٢٢) الشيرازي : نفس الصفحة من نفس المرجع

(٢٣) المعارف لابن قتيبة ص ٤٩٤

(٢٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٢٦

(٢٥) الأعلام للزركلي مادة الحسن

(٢٦) بطل الإسلام لأحمد أمين ص ١٩٨

(٢٧) أمالي الشريف المرتضى جـ ١ ص ١٠٦ — ١١٢

(٢٨) ابن خلكان جـ ١ ص ١٢٩ المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠ هـ

حسين علي الرافعي

السلاح الجوي الملكي

يعلن السلاح الجوي الملكي أنه تقرر تأجيل فتح مظاريف المناقصة العامة الخاصة بالعربات المختلفة اللازمة له لتفتح يوم ١٠ مايو سنة ١٩٥٢ بدلا من يوم ٢٢ مارس سنة ١٩٥٢ وما زالت شروط المناقصة تباع لدى إدارة العقود والمشتريات برئاسة السلاح الجوي الملكي ١٠٨٧